الدولة السلجوقية وأتابكياتها

١) الدولة السلجوقية :

بدا العالم الاسلامي منذ منتصف القرن الخامس الهجري (١١م) وكأنه صرح قد تقوض بناؤه وصار آيلا للسقوط : فالمشرق الاسلامي مفكك ومنقسم على نفسه بين خلافتين متعاديتين : الخلافة العباسية السنية في بغداد ، والخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة. وكل واحدة منهما قد استنفدت قواها في مشاكلها الداخلية بحيث صارت عاجزة عن حماية حدودها. وانتهزت الدولة البيزنطية هذه الفرصة وأخذت تغير على الحدود الاسلامية المتاخمة لها وتتوغل في أراضيها في شمال الشام والجزيرة .

وفي نفس هذا الوقت كان الغرب الاسلامي يعاني هو الآخر مثل هذا الضعف والانهيار على أثر سقوط الخلافة الأموية في الأندلس وتفكك الدولة إلى دويلات ضعيفة متنازعة عرفت بالطوائف أو الفرق . وانتهز ملك اسبانيا النصرانية هذه الفرصة وأخذ يغير على ثغور المسلمين ومدنهم بغية طردهم نهائيا من الأندلس .

ولم يكن يوجد في داخل كيان هذه الدول الاسلامية المضمحلة شرقاً وغرباً

ما يبشر بظهور حركة يقظة أو إحياء فيها ، بل كانت في حاجة ماسة إلى دماء فتية جديدة تأتيها وتغذيها من خارج حدودها لا من داخلها كي تنقذها من انهيار محقق . وكان من حسن حظ العالم الاسلامي في ذلك الوقت ان تحققت له هذه المعجزة حينما جاءته من وراء حدوده شرقا وغربا عناصر فتية جديدة مليئة بفتوة البداوة وعنفوانها : فالمشرق جاءته موجات الأتراك السلاجقة الذين دحروا البيزنطيين وطردوهم من آسيا الصغرى بعد معركة ملاذكرد الحاسمة سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) . والمغرب جاءته من صحراء موريتانيا جنوبا موجات من البربر الملثمين المرابطين الذين وحدوا المغرب ثم عبروا إلى الأندلس وهزموا الاسبان في موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) فانقذوا الاسلام هناك ، وأخروا سقوط الأندلس أربعة قرون أخرى .

وحديث الأندلس والمرابطين لا يعنينا هنا في تاريخ العباسيين إلا من حيث هذا الربط والمقارنة بين الأحداث . أما الأتراك السلاجقة فهم مجموعة من القبائل التركية التي عرفت باسم الغز أو الأغوز ، أصلها من سهوب تركستان في أواسط آسيا . أما تسميتهم بالسلاجقة فنسبة إلى قائدهم الذي وحدهم وجمع شملهم سلجوق بن دقاق فنسبوا إليه .

وتبدأ أهمية السلاجقة منذ انتقالهم مع زعيمهم سلجوق إلى بلاد ما وراء النهر واعتناقهم للدين الاسلامي على المذهب السني . فقد أتاح لهم اسلامهم فرصة الاستقرار في الأراضي الاسلامية بنواحي بخاري وسمرقند في أواخر القرن الرابع الهجري ، والتعاون مع السامانيين في حماية الثغور الشرقية ونشر الاسلام فيما وراءها بين الأتراك الوثنيين . ثم أخذت جموع السلاجقة تزداد وتنتشر في هذه المنطقة خصوصا بعد سقوط الدولة السامانية ، بحيث لم يأت القرن الخامس إلا وكانوا على استعداد للهجرة غربا نحو خراسان بقيادة طغرلبك حفيد سلجوق . ولا شك أن قيام دول تركية على الحدود الاسلامية الشرقية كالدولة القرخانية والدولة الغزنوية ، قد ساعد هؤلاء الأتراك السلاجقة على عبور نهر جيحون والانتشار غربا في أراضي الخلافة العباسية .

استولى السلاجقة على مرو ونيسابور وبلخ وطبرستان وخوارزم في سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) ، ثم الجبال وهمذان ودينور والرى وأصفهان (٤٣٣ — ٤٣٧ هـ) . وقد حرصوا خلال زحفهم على اظهار تمسكهم بمذهب أهل السنة ومحاربتهم للمذهب الشيعي .

وكانت الخلافة العباسية في ذلك الوقت تعاني من سيطرة الدولة البويهية الشيعية ومؤامرات الدولة الفاطمية التي أحدثت في البلاد اضطرابات مذهبية عنيفة بين السنة والشيعة . لهذا لم يجد الخليفة القائم العباسي وسيلة أمامه سوى الاستنجاد بزعيم الأتراك السلاجقة طغرلبك للقضاء على هذا الوضع الشاذ الذي كانت تعانيه خلافة بغداد . فأمر بأن يخطب باسم طغرلبك في مساجد بغداد في رمضان سنة ٤٤٧ هـ ، ثم أذن له بدخول بغداد ، وخرج الأمراء والرؤساء والقضاة والنقباء والأشراف لاستقباله في موكب عظيم . وبدخول طغرلبك مدينة بغداد سقطت الدولة البويهية وقامت الدولة السلجوقية .

ولتدعيم الروابط بين الخلافة الهاشمية والسلاجقة الأتراك ، تزوج الخليفة القائم من خديجه (أرسلان خاتون) بنت داود أخي السلطان طغرلبك .

كان لسقوط دولة بني بويه وحلول السلاجقة السنيين مكانها ، وقع سيء في الأوساط الفاطمية في القاهرة . وكان رد الفعل عنيفا ، إذ اتجهت الدولة الفاطمية نحو سياسة الانتقام من حكومة بغداد الجديدة ، وذلك بأن شجعت فتنة القائد التركي أبي الحارث أرسلان البساسيري الثائر على الخلافة العباسية في العراق .